التنظير التنموي ، قراءة في الطروحات ومحاولة في النمذجة
Developmental theorizing, a reading of spirits and an attempt at modeling.

سهيلة برقية[1]*، عبد الرزاق عريف[2]،
[2.1] جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

تاريخ الاستلام : 2025-03-19؛ تاريخ المراجعة : 2025-05-07 ؛ تاريخ القبول : 2025-06-30

ملخص :

يبحث هذا المقال في المعروض من الطروحات التنظيرية التنموية ،ويحاول أن يقدم قراءة في أسسها ومقدار ملاءمتها واقترابها من الخصوصيات الثقافية والبنائية والسياسية والاجتماعية لبلدان العالم المتخلف ، ويقترح نمذجة خاصة لتلك النظريات،رأينا أنها تتوزع على أربعة نماذج ، النموذج المغترب والنموذج الغربي التغريبي والنموذج الغريب ،والنموذج التأصيلي .وعلى الصعيد المنهجي يسير وفق آلية منهجية تنطلق من تبيان علة تسمية النموذج ،ثم بيان مقولاته وقضاياه الأساسية وتفريعاته -إن وجدت- وأخيرا مساءلة ملاءمتها

الكلمات المفتاحية : نظرية التنمية ،؛ نمذجة ؛ تحديث ؛ تبعية ؛ مالك بن نبي.

Abstract :

This article examines the classical development theories on offer, attempting to provide a reading of their foundations and the extent to which they align with or diverge from the cultural, structural, political, and social specificities of underdeveloped countries. It proposes a unique modeling of these theories, which we believe can be categorized into four models: the Alienated Model, the Westernizing Model, the Exotic Model, and the Authentic Model. Methodologically, the article follows a systematic approach that begins by clarifying the rationale behind the naming of each model, then outlines its fundamental propositions and issues, along with any subcategories if they exist, and finally questions its suitability.

Keywords : Development Theory ; Modeling; Modernization ; Dependency ;Malek bennabi.

مقدمة:

شكلت التنمية ولا تزال هاجسا اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا ،وكذلك علميا . وقد تترجمت تلك الهاجسية علميا في شكل طروحات ونظريات تنموية حاول كل منها توصيف واقعة التخلف واقتراح الحلول الناجعة لها ،على اعتبار التخلف المقابل المباشر للتنمية ،وباعتباره كذلك الحالة البدئية في مقابل التنمية كحالة نهائية يؤمل الانتهاء عندها والوصول إليها .والمتتبع لتلك الطروحات و النظريات التنموية يرصد انها لم تتبع من مشرب واحد بل من مشارب متعددة ومختلفة يصل اختلافها حد التنافر، قياسا إلى اختلاف مرجعياتها الأيديولوجية بالأساس، وجلها اقترب من العالم النامي وجعله محكه لاختبار الكفاءة التنظيرية ، وذلك الاقتراب لم يكن بأعين صائغي تلك النظريات فحسب ،بل بعقول وأعين متبنيها ومناصريها من العالم العربي ومن خارجه .وفي هذه العجالة البحثية سنحاول إمعان النظر في النماذج التنظيرية التنموية عبر آلية خاصة تتجاوز الطرح الاستعراضي للتراث المتعلق بالتنمية إلى محاولة تفيئة هذا التراث ،ومحاولة مساءلته: ما مدى مراعاته للخصوصيات الثقافية والسياسية والبنائية للمجتمعات والدول المستهدفة بالتنمية ؟

أولا/ مدخل مفهومي ، التنمية والتحديث ،فض الاشتباك :

إن ما دعانا إلى هذا الاستهلال المفهومي ،هو حالة التماس الشديدة بين مفهومي التنمية développement ومفهوم التحديث modernisation والتي فرضها بالأساس العامل التاريخي والسياسي قبل العامل العلمي الأكاديمي،لأن جل الدول الناشدة للتنمية اليوم هي دول كانت مستعمرة من قبل عانت ولا تزال من تبعية على جميع الأصعد للدول الاستعمارية، بما فيها التبعية المعرفية،إذ أن عددا كبير ا منها نسج خططه التنموية مرغما وفق المصالح والايدولوجيا الاستعمارية الامبريالية،وهذه الأخيرة كانت تُسوق لنتاجات معرفية على المقاس،ولعل أكثرها تطابقا مع هذا الوصف،مفهوم التحديث الذي تحول إلى تيار تنظيري يحوي عدة نظريات.

ومن جانب آخر،جاءت تداخلات مفهوم التحديث مع مفهوم التنمية من الاشتراك في نقطة الانطلاق فكلاهما ينطلق من مقولة التغير.فجذور نظرية التحديث –كما هو معلوم-تعود إلى كل من "دور كايم" و"ماكس فيبر"، ومقارنتهما بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة وذلك في إطار إسهاماتهما النظرية العامة حول التغير الاجتماعي والاقتصادي (زمام،2003،ص 20) كما أن التنمية في جل تعريفاتها هي عملية تغير قبل كل شيء، وهو تغير نحو الأحسن والأفضل بطبيعة الحال.

إلا أن الاختلاف بين المفهومين واقع في طريقة هذا التغيير ،كيف يكون، وبأي الوسائل؟ فمفهوم التحديث قائم بالأساس على الإحلال، أي حلول شيء مكان شيء آخر ،وهذه النظرة قائمة بدورها على التصور الثنائي للمجتمعات تقليدية/حديثة، والمجتمعات النامية هي دوما الحلقة الأضعف ،وهي المجتمعات التقليدية بينما تمثل الدول الغربية المجتمعات الحديثة ،وهذا ما يعبر عنه "مونتي بالمر" عندما يعرف التحديث بوصفه عملية التحرك باتجاه مجموعة العلاقات المثالية التي ينظر إليها بأنها حديثة ويحصر تلك العلاقات فيما تحقق في أوروبا في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية (زمام،2003،ص 22)

إن هذا التصور يضع التحديث في صورة المنجز ويضع عملية التغير أمام حتمية واحدة ووحيدة اسمها النموذج الغربي وهذا يناقض تماما فلسفة التغير في التنمية التي تقوم على الأصالة بمعنى الاعتماد على التصورات و القدرات الذاتية.ولا بأس هنا أن نعيد تعريف "سعد الدين إبراهيم"للتنمية والذي يتساوق مع هذا المعنى،حيث يقول :"التنمية هي انبثاق ونمو كل الإمكانات والطاقات الكامنة في كيان معين بشكل كامل وشامل ومتوازن،سواء كان هذا الكيان فردا أو جماعة أو مجتمعا (جامع،د ت ، ص 52،53)

على مستوى آخر يبدو مفهوم التنمية أقرب إلى الواقعية والتجسيد على عكس مفهوم التحديث الذي هو أقرب التصور والتجريد،ويتجلى ذلك من خلال الأبعاد والمؤشرات،فأبعاد التنمية ومؤشراتها أكثر واقعية،ويمكن ملاحقتها وقياسها،بينما مؤشرات التحديث تبدو أكثر صعوبة في تحديدها،وتعريف"مونتي بالمر"السابق الذكر للتحديث الذي يحصره في العلاقات المثالية يؤكد ذلك.

وعلى الرغم من هذه الأفضلية لمفهوم التنمية على مفهوم التحديث إلا أن اللاشعور السياسي -وحتى العلمي-لايزال يوظف التنمية وفقا لمفهوم التحديث،ذلك أن الخلفيات الفكرية و التاريخية والنفسية والمعرفية لهذا المفهوم ذات سطوة بالغة،جعلت هيمنتها تستمر إلى الوقت الحاضر.

ثانيا/ المحاولة النمذجية :

لقد قصدنا من هذا العنوان تجاوز الطرح الاستعراضي للتراث السوسيولوجي المتعلق بالتنمية , إلى طرح يستبطن ما في الطروحات النظرية من توجهات . و محاولة التبصر –من خلال محاولة تفيئية – بمدى إلمام الرؤى النظرية بواقع واقعة التخلف و مدى مراعاتها للخصوصيات الثقافية و السياسية و البنائية للبلاد المتخلفة، محاولين فتح نافذة لاستعراض محاولة

تأصيلية في التنظير التنموي, نابعة من سياق آني و محتكمة إلى خلفية محلية خالصة.وسنحتكم في استعراض التراث التنظيري التنموي إلى آلية " نمذجة " خاصة وفق التقسيم التالي:

- النموذج المغترب.
- النموذج الغربي و التغريبي.
- النموذج الغريب.
- **النموذج** التأصيلي.

1/النموذج المغترب :

قبل تعليل التسمية نشير إلى أن هذا النموذج لا يمثل إسهاما نظريا بقدر ما هو تصورات و رؤى عامة لكيفيات استرداد الصدارة الحضارية، أي أنه يعجز عن أن يكون تنظيرا يخضع لمنهج و آلية معرفية واضحة. ويمثله على الساحة الفكرية دعاة الأصالة ذوي الرؤية الضيقة للمرجعية الإسلامية الساعين لاستنساخ تجربة الخلافة بكل حيثياتها وحرفيتها و تطبيقها كما هي على المجتمعات الإسلامية المعاصرة دون مراعاة لاختلافات الزمان والمكان و التجربة والمتغيرات الاقتصادية والسياسية والحضارية لذلك أطلقنا على نموذجه بالنموذج المغترب، لأنه يعاني حالة اغتراب حادة فأصحابه موجودون في العصر الحالي ماديا فقط، لكن روابطهم الوجدانية و الفكرية متصلة اتصالا تاما بعصر صدر الإسلام.

إن هذا النموذج المغترب لم يستطع أصحابه أن يحققوا معادلة استحضار الروح الإسلامية بما فيها من مبادئ الاجتماعية والاقتصادية راقية جدا وتوظيفها في التجربة الحضارية الآتية، بل على العكس تماما ، هم من هاجروا بأفكارهم وإدراكهم واستوطنوا القرن الأول الهجري.

ويرى " عزيز العظمة " أن مثل هذا النموذج النهضوي جاء إلى الوجود و استمر في الوجود لأن الخطاب النهضوي العربي استند في البداية إلى مفهوم ديني أخلاقي سلطوي طور آلية وظيفية أسطورية تتسع لدى أصحابه مساحات مليئة بالخيالات وظيفتها الأساسية الهروب من الواقع و ليس السعي إلى بناء واقع تنموي أو نهضوي .(العظمة،1992،ص ص 75،72)

إننا و إن كنا نتفق مع عزيز العظمة " في المساحة العقلية الضيقة جدا لهذا النموذج وأيضا في اقتصاره على بعد زمني وحيد هو الماضي ، فإننا نخالفه الرأي في الأحكام الجزافية التي يطلقها تجاه كل من يحمل فكرا أصليا غير آبه بالفرق الواضح بين ذوي التوجيهات الإسلامية في الطرح النهضوي ، فهو يصنفهم جميعا في خانة واحدة متشددون و توفيقيون ومجددون وحداثيون . فسقط بذلك ضحية تعميم غير علمي لا يتفق و مستوى مفكر أكاديمي، وهذه التهمة لا تسقط عنه أيا كانت الآلية المعرفية والمنهجية التي اتبعها و التي يبدو أنها نقدية تفكيكية.

وعلى العموم لن نتوقف أكثر عند هذا النموذج و الذي أتينا على ذكره بالأساس لاستيضاح ما يجول في الساحة الفكرية ذات العناية بالشأن التنموي، لذلك سيكون تركيزنا على الإسهامات الأقرب إلى الأكاديمية.

2 / النموذج الغربي التغريبي :

يندرج تحت هذا المسمى نظرية التحديث بتفريعاتها.

كما يتضح من شق التسمية الأول فإن علة التسمية نابعة من أصل المساهمة الغربية في التنظير التنموي ، أي النظرية الغربية ونقصد بها أساسا نظرية التحديث بتفرعاتها العديدة، أما الشق الثاني من التسمية فعائد على أهل البلاد النامية ومن اعتنقوا و تمثلوا ،ثم تماهوا مع النظرية. التحديثية لذلك أطلقنا عليهم - التغريبيين و خلاصة آرائهم في هذا الشأن أن نظرية التحديث صالحة لكل زمان و مكان وينبغي على دول العالم النامي إتباعها بحذافيرها إذا أرادت لنفسها تنمية . ونقوم فيما يلي باستعراض هذه النظرية الكبرى مع بعض تفرعاتها الممثلة لهذا النموذج.

2-1أصول نظرية التحديث :

تجد نظرية التحديث أصولها في علم الاجتماع المحافظ الحاضن الرئيسي لكثير من المدارس السوسيولوجية ، و يتموقع كل من عالم الاجتماع الفرنسي اميل دوركايم و نظيره الألماني " ماكس فيبر " أصلين مباشرين لهذه النظرية.

نادى دوركايم " بفكرة تطور المجتمع من المجتمع البدائي إلى المجتمع الحديث ، و ركز -تحت ضغط نزعته المحافظة على تكوين مجتمعات - مستقرة ومتماسكة مع الزيادة في التعقيد و الكثافة السكانية و التخصص و تقسيم العمل - ليقابل بذلك بين مجتمعين لكل منهما خصائصه و اعتبر أن المجتمع التقليدي أو الميكانيكي - كما يسميه - مطالب بالتخلي عن خصائصه إذا أراد أن يتحول إلى مجتمع حديث عضوي كما يطلق عليه، ووفقا لهذا التصور يجعل دوركايم من الحداثة تقدما و من التقليدية تخلفا..

ومن جملة الخصائص ذات العلاقة بالتسمية والتي يذكرها " دوركايم" في مقابلته بين نموذجي المجتمعين ، نجد وجود مؤسسات متخصصة متماسكة عضويا فيما بينها أشبه ما تكون بخلايا الجسم الحي في المجتمع المعقد أو الحداثي ، بالمقابل تسيطر الجماعات على التنظيم الاجتماعي في المجتمع التقليدي ، و هي الجماعات المتماسكة فيما بينها بنمط صارم من المعتقدات و القيم التقليدية، ثم نجد المجتمع العضوي يسوده التنوع الثقافي القائم على التساند المتبادل ، في حين يسود التجانس والتشابه المجتمع التقليدي. كما نجد أن المكانة في المجتمع العضوي مكتسبة بينما هي موروثة في المجتمع التقليدي . ثم إن الفرد في المجتمع العضوي يمتلك حرية الفعل داخل الإطار العام للقيود الأخلاقية مع خفوت الضمير الجمعي و سيادة القانون التعاقدي بينما يمتثل الفرد في المجتمع التقليدي امتثالا صارما للضمير الجمعي و يسري عليه القانون الردعي .(غربي،2003،ص ص78،82)

فيما يخص ماكس فيبر فإن أفكاره التنظيرية و التي نوردها على سبيل التأصيل لنظرية التحديث فإن أغلبها كانت محاولات للرد على أفكار " ماركس ، و من جملة أفكاره التحديثية والتي ضمنها بشكل أساسي بحثه حول الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية . . اعتقاده أن القيم و الاتجاهات السيكولوجية هي أساس التطور الرأسمالي و ليس أسلوب الإنتاج ، و رؤيته أن هناك علاقة واضحة بين الديانة البروتستانتية و البناء الطبقي إلى جانب اعتقاده أن هناك تأثيرا متبادلا بين الظواهر الدينية والظواهر الاقتصادية و ذلك من خلال إثباته أن القيم البروتستانتية عجلت بالتنمية - وبناءا عليه فإن " ماكس فيبر صاغ نموذجا مثاليا أشبه ما يكون ببناء عقلي تشكل من خلال ظهور سمة أو أكثر يمكن ملاحظتها في الواقع ، إنه يعبر عن مفردات فرضية ملموسة يحددها الباحث بنفسه لكي تكون أساسا تنهض عليه المقارنة. واختصارا فإن " فيبر " يعتبر التحديث اكتساب لمجموع الخصائص التي تتميز بها الرأسمالية الغربية الحديثة التي استمدتها من العقيدة البروتستانتية و التي صاغها في نموذجه المثالي ،والتخلي عما دونها .(غربي،2003،ص ص 84-89)

ونشير إلى أن هذان الأصلان اللذان ذكرناهما ما هما في الحقيقة إلا عينة ممثلة أوردناهما لقربهما من الإسهامات اللاحقة في نظرية التحديث، وإلا فهناك العديد من الجذور والأصول و التي تتفق جميعها على فكرة التصورات الثنائية للمجتمع.

2-2 الاتجاهات الفرعية لنظرية التحديث:

لم تكن نظرية التحديث جسدا واحدا و فكرا واحد بل كانت متعددة الطبعات يجمع بينها الولاء للأفكار الأساسية للنظرية الأم ، وأهمها أن التحديث هو التحول الشامل للمجتمع التقليدي و الانتقال إلى تلك الأنماط من التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعي الذين يميزان الاقتصاديات المتطورة.

2-2-1 الاتجاه التطوري المحدث :

يعتبر " والت روستو " رائدا من رواد هذا الاتجاه ، ذلك أنه حاول - بإيعاز من المخابرات الأمريكية على ما يقال - تطوير نظرية تناطح نظرية ماركس ، فقدم نظرية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية اعتبر فيها أن المجتمعات تمر بخمس مراحل أساسية هي:

1. مرحلة المجتمع التقليدي : و تتميز بانخفاض متوسط الدخل الفردي و غلبة الطابع الزراعي المرتبط بالنظام الإقطاعي وسيادة الروابط العائلية و العشائرية وانتشار التقاليد الجامدة.
2. مرحلة التهيؤ للانطلاق : و هي فترة تمهيدية للتنمية حيث يتم فيها انتشار التعليم و ظهور المؤسسات و البنوك وزيادة الإنتاج الزراعي و نمو الصناعات الإستراتيجية وغيرها من المظاهر.
3. مرحلة الانطلاق : يرافق هذه المرحلة حدوث ثورة سياسية تؤثر في البناء الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي و يتم فيها القضاء على العقبات والعوائق التي تقف في طريق التنمية و يجعل " روستو الامتداد الزمني لهذه المرحلة عشرين عاما.
4. مرحلة الاتجاه نحو النضج : أو التحرر والاعتماد على النفس، حيث يستطيع أن ينتج أي شيء يرغب فيه، ومن أهم التحولات البنائية في هذه المرحلة الانخفاض الكبير في نسبة العاملين في الزراعة بالإضافة إلى مجموعة من التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
5. مرحلة الاستهلاك الوفير : وفيها يتحول الاستهلاك و الخدمات إلى قطاعات رئيسية، ويرتفع متوسط الدخل بشكل كبير و تزداد نسبة سكان المناطق الحضرية .

و لقد وجهت لهذا الاتجاه انتقادات عديدة أهمها اعتقاد روستو " بأن الانجازات الغربية كانت من مواردها وجهودها خالصة ، بينما هي في الحقيقة جراء الاستنزاف الاستعماري ، كما عيب عليه إلغاؤه لدور العنصر البشري في التنمية .(الغرايبة، 2010،ص ص 51-53)

تحت ذات الاتجاه يدخل إسهام " تالكوت بارسونز " الذي يرى أن المجتمعات عرفت ثلاث مستويات تطورية

المستوى البدائي الذي يتميز بسيطرة النسق القرابي كأساس للتنظيم الاجتماعي و السياسي، و حضور الدين بقوة كأداة رمزية و ضبطية .ثم المستوى الوسيطي و أهم ما يميزه استعمال الكتابة و وجود تنظيم سياسي قابل للتطور من النظام الملكي إلى أنظمة أكثر تعقيدا. ثم المستوى الثالث وهو مستوى المجتمعات الحديثة وأهم ما يميزه ظهور القانون كمؤشر لاستقلالية النظام المعياري للمجتمع، و مستجيب لخصوصية المرحلة المطبوعة بالتغير الدائم للمصالح الاقتصادية والسياسية.

لكن بارسونز تعرض بدوره إلى العديد من الانتقادات أهمها إغفاله لبعض العوامل الأخرى الثقافية ، بالإضافة إلى افتراضه تفوق الثقافة الغربية .(زمام،89،84،2003)

2-2-2 الاتجاه انتشاري :

حسب هذا الاتجاه يمكن تحقيق التنمية من خلال انتشار و انتقال العناصر المادية والثقافية السائدة في الدول المتقدمة إلى الدول النامية ، و أن العناصر الثقافية تنتقل من عواصم الدول المتقدمة ، إلى عواصم الدول النامية، ثم تنتشر بعد ذلك في المدن الإقليمية إلى أن تسود في النهاية كل المناطق والأقاليم في هذه الدول " . (الغرايبة،2010، ص 53)

و يعتبر كل من " ويلبرت مور " "و دانيال ليرنر" " و غولدمان" أهم ممثلي هذا الاتجاه ، واستنادا إلى هؤلاء فإن الغرب يتولى نشر و نقل المعرفة و المهارات و التنظيمات ورؤوس الأموال والتكنولوجيا و القيم إلى الدول المتخلفة ليتسنى لها النهوض بمجتمعاتها وثقافتها لتلحق بالدول المتقدمة. (غربي ،2003،ص 53-54) ويعاب على هذا الاتجاه تضليله البالغ ، فهو يغفل تاريخ الدول المتقدمة و المتخلفة على السواء، ويتجاهل حقيقة أن الاستعمار قد لعب دورا خطيرا في تخليف الدول

المتخلفة من خلال تحطيمه البني الاجتماعية و الاقتصادية و تشجيعه الفساد فيها ، إلى جانب موطن العجز الواضح في هذا الاتجاه و هو تصوره أن الانتشار عملية اقتصادية و ثقافية محايدة.

2-2-3 الاتجاه السيكولوجي:

ينظر أصحاب هذا الاتجاه إلى التنمية من نافذة الخصائص السيكولوجية للأفراد ، و أهمها الدافعية للإنجاز، و هي الرؤية التي يمثلها " دافيد ماكللاند" الذي يرى أن الدوافع السيكولوجية هي التي تحدد معدل التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، و أن الأفكار تلعب الدور الهام في تشكيل التاريخ و أن الأمم التي لديها درجة أعلى على مقياس الحاجة إلى الانجاز تتطور و تنمو بشكل سريع . (الحسيني،1982،ص 73 (

ويقاسم " ما كللاند" في ذات الاتجاه " هيجن" الذي يعتقد أن الشخصية النمطية التي توجد في المجتمعات التقليدية هي شخصية غير خلاقة ويغلب عليها الطابع التسلطي و هاتين الميزتين هما إفراز المجتمع التقليدي الذي تسيطر عليه التقاليد و البناء الاجتماعي المستند إلى المكانات الاجتماعية.(الحسيني،1982،ص74)

2-2-4 اتجاه المؤشرات و النماذج المثالية:

يختزل هذا الاتجاه عملية التحديث في التخلي عن السمات التقليدية و التحلي بالسمات التقدمية، ويتم ذلك من خلال تجرد الخصائص العامة للاقتصاد المتقدم و تقديمها في شكل نموذج مثالي ثم يقابل بعد ذلك هذا النموذج بالخصائص العامة للاقتصاد المتخلف بوصفه نموذج غير مثالي. ويقدم مجموعة من المؤشرات الكمية و الكيفية التي تميز كل نمط من المجتمعات ومن بينها متوسط الدخل الفردي، اليد العاملة في الزراعة، الأمية ،التحضر ... الخ. (الغرايبة،2010،ص 51)

ويعتبر كل من " سيمور ليبست و " بيرت هو سليتي" و " غالتونغ" و " ماريون ليفي" من أبرز ممثلي هذا الاتجاه و الذي لا يزال منتشرا إلى اليوم حيث يتبناه الكثير من العلماء و المنظمات الدولية.(زمام،2003،ص 59) وعلى العموم فإن نظرية التحديث كنموذج تنموي غربي تغريبي تعرضت إلى جملة من الانتقادات التي مست ركائزها النظرية وصدقها الميداني ، و التي نورد بعضا منها:

- ساعدت على إقصاء الخصوصية السوسيولوجية التي تربط العلوم الاجتماعية ، ففقدت العمق التحليلي و أساءت فهم التخلف.
- تجاهلت الخصائص التاريخية للدول المتخلفة.
- أغفلت دور الاستعمار في تخليف الدول النامية.
- زيفها الواقعي عند اعتبارها التحديث قمة الإنجاز للتطور الإنساني.
- اصطباغها بالصبغة العرقية عندما اعتبرت الحضارة الغربية الرأسمالية الوحيدة الحاملة للقيم الإنسانية الإيجابية .(غربي،2003،ص ص 108-112)

إن جملة هذه الانتقادات - و أخرى غيرها - تكشف بوضوح أن التصور الغربي للتنمية هو تصور يصادر الحقيقة والواقع الاجتماعي والاقتصادي و الثقافي لدول العالم الثالث ، ثم هو فوق ذلك يطرح التنمية بوصفها آلية تغريب تخدم مصالح المركز الغربي أكثر من كونها آلية تنمي الأفراد والمجتمعات و قد ساند هذا المشروع فئة عريضة من دعاة التنمية في الدول العالم الثالث من ذوي الوعي الفكري و الأكاديمي المأزوم.

3/النموذج الغريب:

يندرج تحت هذا المسمى نظرية التبعية.

ويختلف هذا النموذج عن سابقه في نقطة أساسية و هي البراءة النظرية بالمقارنة مع النموذج الغربي الذي يحوي مساحات من المكر التنظيري و ذلك عندما يطمس الخصوصيات و الحقائق التاريخية ، و يروج للوعي الزائف ، و الأخطر من

ذلك تكريس التخلف من خلال تسويقه لبدائله التنموية . و نقصد بالبراءة التنظيرية ذلك السعي الفكري الخالص لطرح نموذج نظري مؤهل لإخراج البلاد النامية من حالة التخلف إلى حالة التقدم. ولقد ألصقنا بهذا النموذج صفة الغريب كونه بقي جسما غريبا ولم ينفذ بما يكفي إلى عمق الخصوصيات البنائية والثقافية للمجتمعات المتخلفة وبقي طرحه على مستويات ماكروية وأحيانا قشرية.

3-1 بدايات التشكل:

بعد سيادة الهيمنة السياسية و الاقتصادية و الفكرية للدول الغربية لفترة من الزمن امتدت إلى الخمسينات من القرن العشرين أخذت بذور فكر تنموي محلي ذاتي تظهر في بعض البلدان المتخلفة , حيث بدأ بعض الباحثين من أبناء تلك البلاد يدركون عجز الصياغات النظرية التنموية الغربية في حل مشكلاتهم نظرا لعدم ملاءمتها مع ظروفهم المجتمعية، و تشير مراجع عديدة إلى أن البداية في تشكل هذا التيار كانت من الهند حيث أخذ علماء السياسة والاقتصاد والاجتماع فيها في بذل جهود منظمة و مكثفة من أجل صياغة نماذج علمية نابعة من واقع المجتمع الهندي بعدما أيقنوا بعدم قدرة النماذج الغربية على تفسير ذلك الواقع. ثم تبعت تلك الاستفاقة وعي لدى الباحثين في قارة أمريكا اللاتينية حيث أشار "رودريكز" عام 1979 في دراسة عن علم الاجتماع والواقع في دول أمريكا اللاتينية مركزا على حالة اللاجئين إلى عدم جدوى العلوم الاجتماعية الغربية في دراسة تلك المجتمعات. أما على المستوى العربي فقد شهدت ذات الفترة بزوغ وعي تنموي نقدي لدى الباحثين العرب تأسس على نقد الفكر التحديثي بتفرعاته المختلفة (أبو العينين، 1999، ص 154،155)

3-2 القضايا الأساسية:

تقوم نظرية التبعية على فكرة رئيسية هي تجاوز التحليل الجزئي الضيق وتبني التحليل الكلي لعملية تطور المجتمع، مع تقديم رؤية نظرية - تاريخية تبرز خصوصية المجتمعات التابعة وخصوصية تطورها، كل ذلك مع وضع معلم النسق العالمي كنقطة بداية من أجل كشف موقع الدول المتخلفة فيه – إضافة إلى ذلك اهتمت التبعية بالبناء الاجتماعي، ونظرت إليه من زاوية تخلفه وبحثت في أسباب هذا التخلف، وانتهت إلى أن ذلك عائد إلى كونه تابعا ومحكوما بنمط معين لتقسيم العمل الدولي. وقد استتبع هذه النظرة تحليل الآثار الاجتماعية للتنمية الرأسمالية والتوسع الامبريالي، وكيف تخلق تلك الآثار والتوسعات أبنية اجتماعية تعيق النمو الاقتصادي المحلي ، وتخدم المركزالرأسمالي (غربي،2003، ص 137،138) ونشير في هذا الإطار إلى أن نظرية التبعية عجت بأسماء علماء بارزين كان لكل منهم بصمة خاصة ، ومنهم نذكر : سمير أمين، فرنك كاردوسو ، بريبش ، دوس سانتوس ، فورتادو...مع الإشارة أيضا إلى أن هناك عديد الأسماء الغربية التي ساهمت فيها بمفهومات وصياغات نظرية ، ومن هؤلاء : بول باران، هاري مجدوف ، ايف لاكوست ، والرشتين، بالإضافة إلى أسماء أخرى من مناطق أخرى من العالم شاركت بدورها في تأسيس تيار التبعية أو تطويره كأمثال : محبوب الحق ، حمزة علوي وغيرهما (أبو العينين،1999،ص 155)

3-3 الاتجاهات الفرعية :

تعد دراسة فروع نظرية التبعية أهم صعوبة تواجه الباحث في هذا الإطار، ومرد ذلك إلى عاملين اثنين، أما الأول فهو تنوع تيارات هذه المدرسة ، والثاني هو التطورات التي طرأت على طروحاتها وأفكار بعض مفكريها (زمام،2003، ص 118) ورغم ذلك يمكن أن نرصد فرعين أو اتجاهين كبيرين:

3-3-1 التبعية التنموية وعلاقات المركز -الهامش:

يشمل هذا الاتجاه الأعمال الكلاسيكية للتبعية ويضم أسماء فرانك ، كاردوزو، سمير أمين لكلاو، وغيرهم. وينطلق من الظاهرة الاستعمارية بدارسة أسبابها ونتائجها على بلدان العالم المتخلف، وآثارها على تشكيلاته الاجتماعية ، حيث يوضح

فرانك مثلا: أن التخلف هو نتيجة حتمية لتوسع النظام الرأسمالي الذي يربط دول العالم المتخلف بالدول الرأسمالية مما يسفر عن تنمية في هذا الجزء من العالم تابعة لتلك الدول أسماها علاقة المركز بالهامش أو الأطراف ، ومن هذا المنطلق يمكن تصوير سلسلة كاملة من المراكز و الأطراف تبدو من البلدان المتطورة وتمتد حتى المناطق الزراعية (غربي،2003،ص 140)

كنتيجة مباشرة لتلك الارتباطات يظهر نمط محدد من الاتصال المتبادل بين الطبقات البرجوازية التي تطور مصلحة متبادلة للمحافظة على استقرار النظام واستمراره (غربي،2003،ص 142)

3-3-2 تحليل أساليب الإنتاج :

يعتبر هذا الاتجاه الفرعي من نظرية التبعية شكلا مطورا من النسخة الكلاسيكية إلا انه ناقد لها في بعض المسائل والمسلمات ، خاصة محدودية البعد الخارجي في فهم تخلف العالم الثالث ، وعدم توضيح الطرح الكلاسيكي لماذا لا يمكن وصف الاقتصاد المتخلف بأنه اقتصاد رأسمالي ، زيادة على عدم توضيحه لدور القوى المحلية في إنتاج التخلف ، من اجل ذلك ذهب أنصار هذا الاتجاه إلى تحليل الترابطات بين مختلف أساليب الإنتاج ، فبحثوا في علاقة أسلوب الإنتاج الرأسمالي مع الأساليب التقليدية وغير الرأسمالية الخاضعة لتأثيراته المختلفة وحاولوا الإجابة على سؤال محير مفاده : كيف ولماذا تستمر بعض الأشكال غير الرأسمالية على الرغم من سيطرة النموذج الرأسمالي ؟ وحول هذا يعتقد " ديبري " و" راي " ان بقاءها مرتبط بتلبية متطلبات القطاع الرأسمالي المسيطر الذي يحتاج إلى قوة عمل منخفضة الأجر لاستخدامها في قطاعات أخرى كالمناجم والصناعات الزراعية .وبناءا عليه يرفض أصحاب هذا الاتجاه وصف البلدان المتخلفة بأنها تشكيلات اجتماعية رأسمالية . ويمكن أن نسجل هنا أن المنعرج النظري في هذا الاتجاه هو الإيمان بان العوامل الداخلية مسؤولة أيضا عن إنتاج التخلف وخاصة العلاقات الطبقية ما قبل الرأسمالية (غربي،2003،ص 157)

إلا أن هذه النظرة لمسؤولية العوامل الداخلية عن التخلف لا تنفصل عن الرؤية الأساسية لنظرية التبعية من أن العوامل الخارجية هي التي عملت على تشكيل العوامل الداخلية.

3-4 رؤية في النموذج :

رغم كونه إسهاما جادا ومتميزا، إلا أننا نقدر أن جهد نظرية التبعية هو جهد غريب يعاني غربة مركبة نوعا ما، الأولى غربة تأسيسية ، فنظرية التبعية لم تظهر كإسهام تنظيري تنموي خالص ، إنما كرد فعل على إغفال دور العوامل الخارجية في صياغة التخلف، أما الثانية فعدم وصولها إلى مرحلة تجريدية تؤهلها لتطبيقها في كل دول العالم المتخلف وذلك لالتصاقها الشديد بظروف موطنها الأصلي (أمريكا اللاتينية) الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وهذه الأخيرة تختلف دون شك عن غيرها في دول العالم المتخلف.

ويمكن أن نضيف إلى وجهي الغربة هذين مجموعة من الانتقادات التي طالت هذا النموذج التنظيري ، ومن بينها أن تحليلات فرنك بوصفها احد أهم التحليلات أهملت الطرق التي من خلالها تتعايش مختلف أنماط الأنظمة الإنتاجية ، رأسمالية وغير رأسمالية على المستويات المحلية ، الجهوية والوطنية ، مغفلة أهمية الارتباطات الأفقية لتعزيز أبنية التبعية . زيادة على اتسام إطار فرانك بالبساطة مما يجعله غير قادر على تقديم تصور مرضي لفهم التعقيدات والتنويعات في علاقات المركز الهامش(غربي،2003،ص 144،145)

ويضاف إلى ذلك أن نموذج نظرية التبعية نموذج ماكروي غير نافذ إلى المستويات التي من خلالها تتم التنمية فبحثه في أسباب التخلف كان بقدر اكبر بكثير من تقديم نموذج تنموي واضح يمكن تمثله وتطبيقه على ارض الواقع . وفوق كل هذا

هناك غربة كبرى هي غربة المرجعية ، فمرجعية التبعية مرجعية ماركسية بعيدة كل البعد عن الأصول الحضارية لكثير من دول العالم المتخلف أي أن التبعية في النهاية استعملت أدوية غريبة لعلاج أدواءِ محلية.

4/ النموذج التأصيلي :

نقصد بالنموذج التأصيلي تلك المحاولة التنظيرية التنموية التي تراعي الخصوصية التاريخية ، والعوامل الداخلية والخارجية انطلاقا من مرجعيات حضارية محلية،وقد كان مثالنا الاستقصائي في هذا المقال حصرا إسهام المفكر الجزائري مالك بن نبي .وقبل البدء في استعراض واحدة من تلك المحاولات التي اتسمت بقدر من الدقة والجدية ، نلفت الانتباه إلى هناك العديد من هذه المحاولات والتي يجمع بينها رابط مشترك تقريبا ، وهو تبنيها المرجعية الإسلامية في تصورها لنموذج الإنسان والمجتمع المتقدم . إلا أن ما يعاب عليها بقاؤها حبيسة الآحاد من العلماء ، أي أنها لم تتجمع في تيار نظري متكامل يفضي إلى تطبيقات ميدانية واقعية .

لقد وقع اختيارنا ضمن هذا النموذج على مالك بن نبي وذلك لاتسام مساهمته بالدقة ، وشمول تصوره الجانبين النظري والتطبيقي ، زيادة على النجاح الكبير لأفكاره على المستويين العربي والإسلامي ، وحتى العالمي ، كما حفزنا أكثر تطبيق بعض الدول ذات الاقتصادات الناشئة لأفكار بن نبي كما هو الحال في ماليزيا مثلا.

4-1 مالك بن نبي, من مضائق التنمية إلى رحاب النهضة ،رفض التلفيق ودعوة التأصيل:

بداية نجد أن مالك بن نبي في معالجاته للتنمية كان أوسع بكثير من التناولات الأخرى. إنه ربطها بالمستوى الحضاري ذو الأبعاد الزمكانية المتحركة و نقصد بها المجال الجغرافي والسياقات الزمنية المفتوحة حيث كانت رؤيته تستغرق العالم الإسلامي ككل و بالتالي فلم يكن تفكيره و طرحه حبيس النظرة القطرية الضيقة، بينما يتحرك الزمان عنده ليشمل السياقات الزمنية الثلاث الماضي، الحاضر، المستقبل و هو ما يجسده طرحه الذي يتناول فيه مشكلة الثقافة والتي عالجها من ناحيتين، ناحية التحليل النفسي و فيها يوظف التحليل التاريخي مستغرقا سياق الماضي بينما يحضر في الناحية الثانية و هي ناحية التركيب النفسي سياقي الحاضر والمستقبل . إذ أن طرحه المعالج للثقافة هو بالأساس طرح يقترب من الطرح التنموي إن لم يكن هو عينه ، فالثقافة شكلت لديه قسما كبيرا من الحضارة بل إنه يستعملها في بعض السياقات كمرادف للحضارة.

إن الدليل على أن التنمية كانت هما لمالك بن نبي هو بحثه المتواصل في مشكلة التخلف وربطه إياها بالاستعمار. ويبدو بن نبي منهجيا جدا في تصوره للتنمية، فهو لا ينطلق مباشرة نحو التنظير، قبل أن يبحث في واقع التخلف و هو الذي عاشه و عايشه في بلاده الجزائر. إنه وعلى فكريته لم يستسلم للاستنتاجات العقلية المحضة كما لم تغلبه النزعة المكتبية المفرطة. فقد كان استقرائيا إلى حد ما عندما انطلق من الواقع محاولا تشخيصه و البحث فيه. من أجل ذلك جعل منطلقه ظاهرة التخلف بوصفها النقيض المباشر للتنمية. فبحث و فصل فيها و قدم جملة من الأسباب مستعينا بالمنهج التاريخي و التحليل السوسيولوجي و النفس . اجتماعي. وكما تقدم فإن بن نبي استعان بالتاريخ في توصيفاته و تحليلاته فمنذ مبتدأ تناوله لمظاهر التخلف في العالم الإسلامي و بالأخص في المنطقة المغاربية نجده يستحضر التاريخ للبحث عن بدايات التخلف و تمظهراته. التي يرصد عددا منها، جاعلا من تاريخ ما بعد الدولة الموحدية في المغرب العربي بداية الانتكاسة و بروز مظاهر التخلف و التي تتنوع بين فكرية و اجتماعية و اقتصادية وسياسية أو تمتزج في كثير من الأحيان لتصبح مظاهر مركبة من التخلف.

4-2 حدود مسئولية السياسة في واقعة التخلف عند بن نبي:

لقد اهتم بن نبي بالسياسة وجعل لها حظا وافرا من التخلف الذي تعانيه الأمة الإسلامية ويرصد مظاهر التخلف السياسي في العالم الإسلامي من خلال الانحراف السياسي للسياسة وللممارسة السياسية و هو ما يفضي إلى بروز النزعة

السياسوية والتي تفرز بدورها ظواهر لصيقة كالوصوليين و المستبدين، و مرة أخرى يوظف ابن نبي التاريخ عندما يرجع إلى عصر صدر الإسلام، ويعتبر أن بذور النزعة السياسوية برزت من حادثتي سقيفة بني ساعدة ومعركة صفين المعروفتان في التاريخ الإسلامي، حيث و منذها أخذت تترسخ في أذهان الحكام ونفسياتهم النزعة الاستبدادية، بل و أكثر من ذلك تحولت إلى نموذج العلاقة الطبيعية بين الحاكم والمحكوم. أما في الشمال الغربي من إفريقيا – المغرب العربي – فيرى بن نبي أن مظهر التخلف هذا تكرس بوضوح بعد دولة الموحدين أين سادت أبشع صور الاستبداد السياسي وغذتها صور الانقلاب القيمي كغلبة المصالح الشخصية على القيم الأخلاقية و الإنسانية، وأفرز كل ذلك قطيعة بين الدولة والشعب (بن نبي،1978،ص 74) لا تزال مستمرة إلى اليوم و هي القطيعة التي عرقلت التكامل الطاقاتي فأضحى المجتمع مفككا لا يستفيد من جهوده و يوجهها نحو التنمية الحقيقية. ويظهر التخلف – حسب بن نبي- كذلك من خلال ما يسميه الشيئية التي تطمس معالم الجوهر الروحي للإنسان. إنها ذلك السحر و التعلق بالمادة النابع من الذات الشهوانية الطامحة دوما إلى سد الحاجات الملحة. وحسبه فان هذا التعلق ينقلب إلى مظهر للتخلف تصطنع جميع الممارسات والسلوكات الاجتماعية به وتميزه قاعدة اجتماعية ,فيصبح الإنسان تبعا للمادة مصادرا لأهم آلية فيه وهي آلية التفكير لأنها ضاعت بين كم الأشياء اللامحدود الذي يحفل به عالمه, و في هذا يضرب "بن نبي" المثال بالإنسان الجاهلي الذي غرق في عالم الأشياء فكانت مخرجاته تعبيرا صادقا عن جموع الموارد التي حفل بها من خيل و نساء و آلات حرب (بن نبي ،1978،ص 70)

3-4 التمظهرات الاجتماعية للتخلف:

العلاقات الاجتماعية تظهر التخلف هي أيضا .وذلك عندما تصيبها حالة الارتخاء ثم التمزق, بسبب سيطرة النزعة الفردانية كترجمة مباشرة لسلم القيم و تعاكس المصلحة الفردية مع المصلحة الجماعية, ما يؤدي إلى غياب الانسجام و التكامل وكذا غياب الفاعلية الفكرية انطلاقا من كون الأفكار محرك الحضارة الأساسي(بن نبي،2006،ص 166)

على الصعيد الاجتماعي دائما يتمظهر التخلف من خلال ظاهرة مزدوجة الحضور باستغراقها الفرد و المجتمع، فعلى المستوى الفردي يبدو الفرد غير قادر على التكيف مع الواقع وعلى المستوى المجتمعي يبدو المجتمع عاجزا عن توفير الضمانات الاجتماعية للفرد ويرى بن بني أن هذا الوضع الاجتماعي إنما هو في الحقيقة ذو بعد اقتصادي لان الفرد في المجتمع المتخلف عجز عن تحقيق المسلمة البسيطة الدافعة في حقيقتها إلى الديناميكية الاقتصادية وذلك من خلال المسلمتين الفرعيتين التاليتين :

- لقمة العيش حق لكل فم.

العمل واجب على كل ساعد (بن نبي ،1978،ص70)

4-4 مظاهر التخلف وأسبابه :

من أهم المظاهر التي تصاحب التخلف ظاهرة التكديس و التي هي نتاج النزعة الذرية والخلط في عالم الأفكار أو هي بصورة أوضح عدم التوازن بين عالم الأفكار و الأشياء والأشخاص , و عدم التوازن هذا على ما يفهمه " بن نبي " هو اعتداء أحد الحيزات الثلاث على الآخرين, و تحديدا اعتداء الحيز الشيئي الذي يرجع بالمجتمع إلى المرحلة الطفولية المغرقة في التسهيل و الشهوات و الأشياء. و بديهي و الحال هذه أن يتجه المجتمع نحو تكديس الأشياء و يغيب عنه التفكير المنظم والمقنن (بن نبي،2006،ص 166)

أقصى درجات التخلف هي العجز الفكري و الذي ليس هناك مظهر ألصق به منه, حيث تتدنى الأفكار في المجتمع المتخلف إلى درجة الانعدام, أو في أحسن الأحوال مستدخلا لأفكار غريبة عن النسق الاجتماعي الأصلي مما يجعله عاجزا عن النشاط و الابتكار و الفاعلية . إن ذلك الاستدخال للأفكار كثيرا ما يكون مصدره الماضي البعيد الذي يصبح الفرد معه مغتربا عن واقعه عازفا عنه و عن مجابهته, و تفصح الأفكار عن نفسها من خلال صورتين متعاكستين , فهي إما

عوامل نهضة و إما عوامل انحطاط تغدو معها التنمية صعبة بل مستحيلة كل ذلك يحدث لأن النشاط الإنساني هو انعكاس لعالم الأفكار .

يقابل مظاهر التخلف الستة المذكورة آنفا, أسبابا ستة رئيسية يراها " بن نبي " جوهرية في إفراز حالة التخلف, تتنوع تلك الأسباب بدورها بين داخلية و خارجية , نفسية و اجتماعية, عقلية و اقتصادية , و إن كان " بن نبي " يميل إلى التركيز – عرضا و تحليلا- على الجانب النفسي و الاجتماعي.

ويأتي على رأس أسباب التخلف عند المسلمين، -كموضوع اهتمام رئيسي لبن نبي - غياب الفاعلية أو الفعالية ، إذ أن الفرد المسلم يملك نظريا مشروعا مجتمعيا واضحا أساسه النص القرآني وهو يعلم -أي المسلم- انه لا يرقى إليه الخلل ، وانه يصلح للتجسيد الواقعي, لكنه بالمقابل لا يدخل في حالة التفاعل اللازمة معه. إنما على العكس يعيش خارج دائرة اعتقاده الفكري و الأخلاقي على المستوى الواقعي، وقد أدى ذلك إلى حالة انفصام أخلاقي. تترجم هذه الحالة حسب بن نبي في ذلك الميل والنزوع إلى الثقافة الصوفية والزهدية(بن نبي،1970،ص 43)

كما تفصح عن نفسها كذلك من خلال حالات الذهان الجماعي التي تصيب أفراد المجتمع المتخلف ، ومن بينها ذهاني السهولة والاستحالة، وتغيب في الوسط حالة الاعتدال في النظر للأشياء ففي ذهان السهولة يغيب التفكير العميق و التخطيط الرشيد ويسود التفسير السطحي، يقول بن نبي في معرض حديثه عن هذه الحالة: "وأيسر طريق لأصحاب السياسات الانتهازية أن يستخدموا كلمات مثل الاستعمار والامبريالية والوطنية للتغرير بالشعوب. هذه الكلمات التي تليق جدا لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه نحو السهولة ميسورا جدا (بن نبي،1960،ص 27)

أما في ذهان الاستحالة فتبدو الأمور مستحيلة ضخمة وهي في الحقيقة غير ذلك لان الفرد الذي وقف أمامها عاجزا هو من صورها كذلك حتى لا يتعب نفسه في الحل ، أو بسبب عجزه وضعف همته ، ولا أدل على هذه الحال من ذلك الشعور الذي انتاب كثيرا من الشعوب المستعمرة باستحالة إخراج الاستعمار من بلادها أو استحالة استئناف الدورة الحضارية للعالم الإسلامي (بن نبي،1960،ص 27)

ومن أسباب التخلف الرئيسية حسب بن نبي ما يسميه القابلية للاستعمار. وهي حالة اقرب ما تكون إلى المرض الجماعي بسبب ذلك الركون الجماعي للراحة والدعة ما يجعل أية حركة لتغيير الواقع غير مستساغة ، فيعيش بذلك حالة الانهزام النفسي المفضية بدورها إلى الرضوخ للمستعمر رضوخا تاما ،ويرجع بن نبي إلى العهد ما بعد ألموحدي كنقطة بداية لهذه القابلية (بن نبي،1964،ص 23) والتي استمرت مدفونة في الذات ووجدان الشعب حتى التقت مع الطموح الاستعماري الذي كرسها تخلفا متشعبا ومتجذرا .

إذا كانت النزعة التكديسية مظهرا من مظاهر التخلف فإنها بالمقابل سببا من أسبابه والتكديس كما يراه بن نبي مرض نفسي يعتري الإنسان العاجز الذي يفرغ عجزه الفكري في شكل نزعة تكديسية أي بالاعتقاد المطلق في عالم الأشياء على حساب عالم الأفكار الجانب الحقيقي للإنسان .فيعمل الإنسان التكديسي على اقتناء الكثير من الأشياء – معتقدا أنها مخرجه من الأزمة – ثم لا يسعى لاستدخالها في منظومة الإنتاج (بن نبي،1978،ص69) و كأن بن نبي كان يرى واقع دول العالم الإسلامي اليوم، فهي كثيرا ما تنفق على التجهيز شطائر كبيرة من ميزانياتها على شكل آلات و أجهزة ثم تترك ليأكلها الصدأ.
يضطلع الجانب العقلي بأهمية كبيرة في صناعة حالة التقدم وعليه كل عجز في المسارات العقلية سيفضي إلى حالة التخلف، في هذا الإطار يرى بن نبي أن العقلية التجزئيية السائدة في بلاد العالم الإسلامي تقف بشكل مباشر وراء حالة التخلف، حيث أن العقل المتخلف ينزع إلى التجزئة ، وتصبح المشكلات العامة مجرد أجزاء مفككة تفتقر إلى النظرية الكلية والتكاملية فتغيب المنهجية التركيبية.

وبالرغم من تركيزه على الجانب الفكري ، فإن بن نبي – كما تقدم معنا – لا يهمل الجانب الاقتصادي، والذي يتموقع هنا سببا خارجيا للتخلف، حيث أن الدول الرأسمالية تحاول جاهدة الإبقاء على الدول المتخلفة في حالة الريعية أي دون مرحلة التصنيع. وهذا الوضع يكفل استمرار تدفق المواد الأولية وفي نفس الوقت ضمان الأسواق لتصريف المنتجات(بن نبي،1978،ص36)

والى جانب جملة الأسباب سالفة الذكر يذكر بن نبي فشل المشروع النهضوي ، حيث عرف الواقع العربي و الإسلامي تصادم رؤيتين كبيرتين افتقرتا إلى المنهجية الصحيحة في بناء المشروع النهضوي والمرور إلى حالة التنمية ويتعلق الأمر بكل من الإصلاحيين، وهم الذين تشبثوا بالماضي وعادوا إليه دون تمحيص أو نقد أو تكييف حتى، وكذلك التحديثيين المتجهون كلية إلى الفكر الغربي و المتأثرين به تحت واقع الانبهار مما خلق لديهم حالة اغتراب واضحة عن واقعهم وعن مجتمعهم . وكانت النتيجة المنطقية لهذا الوضع شتات فكري و تنموي.

5-4 مقومات الإقلاع التنموي الحضاري عند بن نبي:

بعد أن شخص ابن نبي مظاهر التخلف و أسبابه انتقل إلى بيان الخطة الكفيلة بتجاوزه والتي يصوغها في شكل شروط ، أو مقومات ، نستعرضها تباعا :

• تثمين الفكرة الدينية:

لأنه آمن بأن التنمية والحضارة هما نتيجة عمل تغييري عميق ومتواصل ، فإننا نجد بن نبي جعل أعمق ما في الإنسان وهو الجانب الروحي مركز نواة التغيير ، وبالتالي يجب التركيز عليه باستغلال عمق وحيوية و وظيفة الدين في الفكر والعمل التنموي ، حيث أن الدين من وجهة نظر بن نبي يضطلع بوظيفة اجتماعية هامة وهي تكوين اللحمة بين عالم الأشخاص و الأفكار و الأشياء، لكنه اشترط في الفكرة الدينية وضوح وظيفتها الاجتماعية أي مدى فاعليتها التي تتجسد من خلال مدى تمثل معتنقي الديانة لقيم و أفكار عقيدتهم ومدى تطبيقهم لها واقعيا. والدين بهذا المعنى يخدم التنمية خدمة كبيرة لأنه يؤسس لأرضية مشتركة هي شبكة العلاقات الاجتماعية وهي الضرورية جدا في بناء المشروع التنموي.

• **المنطق العملي** :ويتحقق ذلك من خلال الجمع بين العلم النظري والعمل التطبيقي و البعد عن التنظير المجرد الذي لا يخدم واقعا معينا .

• **التكوين النفسي :** ويكون ذلك بتمكين الإنسان من معرفة ذاته وموقعتها في الموقع الصحيح دون إفراط ولا تفريط ، دون نكرانها نكرانا تاما ولا تمجيدها تمجيدا أعمى. فالشطط في الحالتين يعرقل عملية الانطلاق الحقيقية نحو التنمية . بمعنى إيجاد نموذج إنسان جديد يعرف ذاته معرفة حقيقية وعقلانية ويتمتع بآليات العقلانية والتمحيص والنقد الموضوعي، وجماع هذه الآليات لا يمكن أن تجتمع في قاصر من حيث التكوين النفسي ، وان نموذج هذا الإنسان لن يقبل على نفسه الاستعمار أيًا كان شكله ونوعه.

• **التكوين السياسي** :أي تحقيق معادلة الانسجام بين الفرد والدولة ، بخلق فلسفة ذات رؤية واضحة لمسألة الحق و الواجب وذلك بتأصيل تقديم الواجب على الحق في ذهن الأفراد فمن شأن ذلك أن يرأب الصدع بين الحاكم و المحكوم ويوحد جهودهما في خدمة التنمية.

• **توفير المناخ الاجتماعي :**و يتأتى ذلك من خلال بناء شبكة العلاقات الاجتماعية و التي يعتبر بناؤها ضرورياً لبروز مجتمع كفيل بحمل المشروع التنموي، لأنها المحضن الذي يحضن الأطراف الاقتصادية والسياسية والثقافية. إنها توفر الصلات الضرورية داخل العوالم الثلاثة: الأشخاص والأفكار والأشياء(بن نبي،ميلاد مجتمع، 2006،ص 27)

• **الاكتفاء الذاتي في إطار التكاملي :**يتصور مالك بن نبي تحقيق الاكتفاء الذاتي في إطار تكاملي عبر حلقة اقتصادية موسعة تتعدى حدود الدولة القطرية إلى حدود العالم الإسلامي ،كل ذلك في إطار تنظيم اقتصادي يسميه محور طنجة – جاكرتا، وهو التنظيم الذي يتصوره بن نبي أكثر من تنظيم اقتصادي لأن ما يمليه هو المصير المشترك لتلك الدول.

• **تنمية الإنسان والاستثمار فيه :**يطلق بن نبي على هذا المقوم الاستثمار الاجتماعي ، و هو استغلال و تأطير الكفاءات البشرية إلى أقصى حد ممكن لأنها تمثل رأس المال الحقيقي ، وفي هذا المقام يصُر بن نبي على أن المال وحده لا يبني الدول بقدر ما يبنيها المجتمع بما يملكه من استعدادات ذهنية وعقلية ويسوق المثل التالي :أن أمريكا لا تستطيع أن تشتري نيويورك لكنها تستطيع بإمكانها الاجتماعي بناء مئات المدن مثل نيويورك(بن نبي،1978،ص 74) ويردف بالمثال الألماني ، فالحرب العالمية الثانية دمرت ألمانيا بشكل شبه كلي ، لكن لما كان رأسمالها الاجتماعي سليما وغنيا بالأفكار ومصدرا قيميا فإن مدة إعادة بناؤها كانت قياسية جدا.

• **احترام الخصوصية المجتمعية :**يرى بن نبي أن الإنسان و إن كان متساوٍ بيولوجيا مع أخيه الإنسان في كل بقاع الأرض فان هناك اختلاف يبرز بين بني الإنسان عند اجتماعهم ببعض . أي أن الاختلافات حاصلة بين المجتمعات ، لذلك نجده يفرق بين الإنسان و الفرد, فالإنسان هو ذلك الكائن البيولوجي والفرد هو ذلك الكائن المتفاعل مع محيطه ، من هذا المنطلق يشترط ضرورة مراعاة واحترام خصوصية المجتمع عند الإقدام على تنميته . ويضرب في هذا الإطار مقارنة بين الإنسان الألماني و الإنسان الاندونيسي من خلال مشروع الدكتور شاخت الذي نجح في المجتمع الأول وفشل في المجتمع الثاني، وذلك لان المشروع و المخطط منبثق من ألمانيا بخصوصياتها المادية و الذهنية و الثقافية.

• **التمكين الأخلاقي في العمل الاقتصادي :**يرى بن نبي أن الاقتصاد محكوم بالسياسة ، وان هذه الأخيرة في كثير من الأحيان لا يردعها رادع الأخلاق . ومن ثمة فان لا أخلاقيتها تنعكس على الاقتصاد من خلال جملة من الانحرافات على مستوى العمليات الاقتصادية كالإنتاج و التوزيع والاستهلاك ، و النظامين الذين عاصرهما [الرأسمالية و الماركسية] سقطا في فخ الانحراف ، فالرأسمالية فتحت الباب للتوحش المالي على حساب المصلحة العامة فتفكك المجتمع إلى طبقات واختلت شبكة العلاقات بين المنتجين و المستهلكين, و الماركسية جردت الإنسان من ميزاته الإنسانية حينما ألغت الملكية الخاصة. ومن هذا المنطلق ينادي بن نبي – كشرط لتحقيق النهضة و التنمية الحقيقية – بضرورة أخلقة الاقتصاد. وضبط معادلة الإنتاج و الاستهلاك وفقا لمعادلة الحق و الواجب بعيدا عن المنظور السياسي الذي يتلاعب بهذه المعادلة وذلك حين يضخم ويلمع الحقوق على حساب الواجبات.

إن كل المقومات التنموية السالفة الذكر ما هي في حقيقية الأمر إلا نتاج مباشر لحضور وامتزاج عناصر ثلاثة, بدونها أو بدون إحداها تكون التنمية مستحيلة,هذه العناصر هي الإنسان والتراب والوقت ، يقول بن نبي "ليس من الضروري ولا من الممكن أن تكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض، و إنما ينهض بالرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه من الإنسان و التراب والوقت" (بن نبي،بين الرشاد والتيه،،2006،ص60)

خاتمة :

لقد حاولنا جاهدين في هذا المقال أن ننفذ إلى عمق النماذج التنظيرية التنموية عبر مجاوزة قشرتها ومساءلة بنيتها واستقصاء كفاءتها من حيث قربها من خصوصية المجتمعات المستهدفة بالتنمية ، وإن كان جهدنا بالأساس قد تركز في محاولة نمذجة خاصة تستند إلى منسوب كل نظرية من واقعية الطرح قياسا إلى الواقع المستهدف .

إنه وإن كان ثمة نتيجة يمكن الوصول إليها فهي ذلك الاغتراب المركب الكامن في التنظير التنموي بتشقيقاته الثلاث الغريب والغربي التغريبي والمغترب ، فلقد تكشف لنا أن هذا التنظير في مجمله يعاني من الاغتراب ،من منطلق حالة الوعي الزائف والذاهل عن حقيقة واقعة التخلف من طرف المنظرين الغربيين وكذلك من طرف بعض أبناء البلاد المتخلفة أنفسهم سواء المنفتحون على الدائرة المعرفية الغربية انفتاحا آليا غير واع ،أو أولئك المنغلقون على ذواتهم المتسكعون في شوارع التاريخ الساعون لاستنساخ تجارب المجتمعات القديمة بحذافيرها دون مراعاة لخصوصيات وشرطيات الزمان والمكان. بينما

يبرز النموذج التأصيلي الذي شايعناه وبايعناه كنموذج قابل للتجسيد كمشروع متكامل الأسس والأركان يحوز درجة مرتفعة من قابلية التحقيق من موقع تلاؤمه وتماهيه مع الخصوصيات الاجتماعية والثقافية للبلاد العربية والإسلامية .

-الإحالات والمراجع:

- جامع، محمد نبيل(د ت) التنمية في خدمة الأمن القومي، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- عزيز العظمة (1992)، الأصالة ، أو سياسة الهروب من الواقع ، دار الساقي ، بيروت.
- علي غربي و آخرون(2003)، تنمية المجتمع من التحديث إلى العولمة، دار الفجر ، القاهرة.
- فيصل الغرايبة (2010)، أبعاد التنمية الاجتماعية العربية ، دار بانا، عمان، الأردن .
- بن نبي، مالك (1964)، آفاق جزائرية ، مكتبة عمار ، مصر.
- بن نبي، مالك (2006) ، بين الرشاد و التيه ، ط 6 ، دار الفكر , دمشق .
- بن نبي، مالك (2006) ، ميلاد مجتمع ، ط 6 ، دار الفكر ، دمشق .
- بن نبي، مالك (1960) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، دار الفكر , دمشق.
- بن نبي، مالك (1970) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ت محمد عبد العظيم علي ، دار الدعوة ، القاهرة.
- بن نبي، مالك (1978)المسلم في عالم الإقتصاد، دار الشروق ،بيروت.
- بن نبي، مالك (2006) تأملات ، دار الفكر ، دمشق .
- الحسيني، السيد (1982.) التنمية و التخلف ، دار المعارف ،القاهرة .
- زمام، نور الدين(2003.)، القوى السياسية و التنمية، دار الكتاب العربي،الجزائر.
- أبو العينين، فتحي (1999) " الاتجاهات النظرية في دراسة التخلف و التنمية و المشكلات الاجتماعية في بلدان العالم الثالث" مجلة شؤون اجتماعية ، السنة العاشرة ، عدد38 الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة .

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

سهيلة برقية، عبد الرزاق عريف، (2025)، **التنظير التنموي ،قراءة في الطروحات ومحاولة في النمذجة** ، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 17(02) 2025، الجزائر : جامعة قاصدي مرباح ورقلة (ص.ص 69-82)